رأينا في الحصص الماضية ملامح أزمة الوعي التي عرفتها الثقافة الغربية في البدايات الأولى للزمن الحديث. وقلنا آنذاك بأن تلك الأزمة كانت منطلق فكر الأنوار.

في هاتين المحاضرتين أقف أولا عند مرتكزات فكر الأنوار، وفي لحظة ثانية سأحلل المضامين الأساسية لمقال كانط حول الأنوار.

يطرح فكر الأنوار، بالنسبة لمؤرخ الأفكار، إشكالية التحديد التاريخي والجغرافي لظهوره. متى انطلق فكر الأنوار؟ هل من الممكن تحديد تاريخ محدد لظهور فكر الأنوار؟ وهل يمكن تعيين نص فلسفي أو علمي أو فني أو ديني يُعد حقيقةً أساسًا لفكر الأنوار؟ ثم، من أي أرض انطلق فكر الأنوار، هل من إيطاليا أم من فرنسا أم من أنجلترا أم من ألمانيا؟

إذا كان بعض المفكرين يختلفون حول مكان وزمان ظهور الأنوار فإن البعض الآخر ينكر جملة وجود مرحلة تاريخية سادت فيها قيم العقل والحرية والتقدم، مثل المؤرخ الفرنسي لوغوف[1] Le Goff. ذلك أنه يتحدث عن عصر وسيط

[1] - Jacques Le Goff, **Un long Moyen Age**, Fayard, Paris, 2010.

طويل المدة دخلت فيه أوربا ولم تبدأ بمغادرته إلا في القرن التاسع عشر مع التقدم التكنلوجي والتطور العسكري والازدهار الاقتصادي. لهذا فالأنوار بالنسبة إليه "وهم تاريخي". في مقابل هذا الموقف، يمكن الرد بملاحظات عامة على منكري وجود عصر تاريخي متميز بخصائص تاريخية وثقافية: مثلا لا يمكن تجاهل وجود أسلوب فني جديد خاص بالقرن الثامن عشر في عمارة المدن والقصور، والديكور والأثاث والملابس، كما لا يمكن إنكار حدوث تغير على صعيد موضوعات الفكر والفلسفة والعلم، يظهر هذا جليا في موضوعات كتب ذاك العصر: العقل والطبيعة والتجربة والمتوحش الطيب Le bon sauvage والمستبد المستنير والتربية والتسامح والحق الطبيعي واليوتوبيا والتقدم والحرية...

ومن أجل الخروج من هذا المأزق التاريخي يمكن أن نتحدث مع بول هازار[2] Paul Hazard وإفون بيلافال عن أنوار بصيغة المتعدد والكثرة وليس بصيغة الفكر الواحد المفرد ظهرت بتتابع بين 1685 و 1815. ففي أماكن متعددة وفي تواريخ مختلفة ظهر فكر أنواري: كان هادئا في أنجلترا، وضد الكنيسة في فرنسا وذا نبرة دينية في ألمانيا وبنبرة خاصة في هولندا، وتحت رقابة شديدة بإيطاليا وطُهراني تَقوي في الولايات المتحدة الأمريكية.

[2] - خصص بول هازار كتابه الشهير **أزمة الوعي الأوربي** للفترة الممتدة بين 1680 و 1715

للخروج من هذا الشتات يمكن الحديث عن مرتكزات أساسية بمثابة عناصر مشتركة لكل فكر أنواري. ففي مقال بعنوان "الأنوار" منشور على صفحات "الموسوعة الكونية" Encyclopeadia Universalis حدد الفيلسوف الفرنسي إفون بيلافال Yvon Belaval ما يمكن أن نعبر عنه بـ"مرتكزات الأنوار" أو "السمات الأساسية" المميزة للفكر الأنواري.

1.فلسفة الأنوار فلسفة علمانية. في نظر بيلافال أعلنت فلسفة الأنوار عن نفسها حاملة للمشروع الديكارتي الذي يفصل حقيقة السلطة عن حقيقة العقل، رافضة أن تكون "خادمة للثيولوجيا". في هذه النقطة تشترك كتابات فولتير المنتقدة للكنيسة، ومؤلف **العقد الاجتماعي** لروسو حيث نحت هذا الفيلسوف مفهوما جديدا هو مفهوم الدين المدني. ثم ننتهي من أمثلتنا بدولباخ D'Holbach الذي كرس جزءا كبيرا من كتاب **نسق الطبيعة** في السجال مع الديانات التاريخية. إن نقد الأنوار لم يتوجه رأسا إلى العقائد الدينية بل رفض استخدام هذه العقائد في التضليل والاستبداد، وانتقد الكثير من رواده تمثل رجال الدين عن العالم المتعالي ولم يرفضوا فكرة الخالق في ذاتها، إلا فيما نذر. لذلك ظل الأنواريون يستشهدون بمقاطع من الإنجيل ونصوص القديس أوغسطين، ليس دفاعا عن عقيدة ما، ولكن لأجل محاربة الخرافة والمعتقدات

الباطلة، ومواجهة أشكال التدين المتعصب غير المقبول من الناحية السياسية والأخلاقية.

2. رفض الميتافيزيقا. السمة الثانية لفلسفة الأنوار هي رفض الميتافيزيقا الدوغمائية للقرن السابع عشر. فقد لاحظ كانط بأن صراعات الميتافيزيقيين لا تنتهي ومعاركهم لا نهاية لها. لكن الفيلسوف جون لوك كان قد مهّد للأنواريين وسائل دحض التصورات الميتافيزيقية. ففي كتابه **دراسة في الفهم البشري**(1690) حطّم لوك نظرية الطبيعة الفطرية للأفكار، مبينا الأصل التجريبي لكل الأفكار، وجاء بعده دافيد هيوم فأثبت بأن المفاهيم الميتافيزيقية يتم بناؤها على أسس تجريبية ثم يتم بعد ذلك نقلها بطريقة غير مشروعة من العالم المادي التجريبي إلى عالم لا مادي متعالي. بعد عمل لوك نشر بيير بايل Pierre Bayle **المعجم التاريخي والنقدي**(1695) أبرز فيه تناقض التصورات والأنساق الميتافيزيقية، التي كانت تدعي لنفسها الارتكاز على الأفكار الفطرية اليقينية والكونية.

إن الانهيار المتوالي للأنساق الميتافيزيقية قد بين بالفعل استحالة بناء معرفة ميتافيزيقية على أسس صلبة لأن مفاهيم الإنسان لا يمكنها أن تتجاوز مجال الإدراك الحسي. فمفاهيم الجوهر والعلة الأولى والنفس...مفاهيم يستحيل بناؤها

بناء يقينيا بنفس مواصفات وشروط المعرفة في العلوم الطبيعية. لقد حطمت أبحاث جون لوك وبيير بايل كل أمل في بناء أنساق ميتافيزيقية شمولية. ومنذ ذلك الحين اختار فلاسفة القرن الثامن عشر طريقهم.

3. الطبيعة والإنسان. بعد الانهيار المتتالي للأنساق الميتافيزيقية والثيولوجية التفت فلاسفة الأنوار إلى موضوعات جديدة: الطبيعة والإنسان. وكأن قدر الإنسان ألا ينتبه إلى وجوده إلا في وقت متأخر. فقد تأمل البابليون والأيونيون السماء قبل أن يدعوهم سقراط إلى الاهتمام بالإنسان. وكذلك تمركز البحث في العصر الوسيط على عقائد الثيولوجيا ومبادئها قبل أن يُنزل مفكرو الأنوار الفلسفة إلى موضوعات الطبيعة والإنسان والمجتمعات. هكذا أصبح الإنسان والطبيعة مركز الاهتمام. لنتذكر أبحاث مونتسكيو حول القوانين والدساتير والدول وأصل السلطة وأشكال التنظيم السياسي، واهتمام روسو بالعقد الاجتماعي وتطور الحضارة وتأثيرها على طبيعة الانسان، وتركيز فولتير على قضايا التسامح والأخلاق والفن، ومتابعة تاريخ الأمم من طرف كوندورسي Condorcet لفهم مسار التقدم...لقد أضحى الإنسان مركز الاهتمام. وكذلك كان الأمر فيما يخص الطبيعة من خلال فيزياء نيوتن وتطور الأبحاث في الكيمياء والتاريخ الطبيعي (العلم الذي حل محله علم البيولوجيا).

4. المناهج. ثار فلاسفة الأنوار على المنهج الكلاسيكي، لم تعد الرياضيات وحدها المنهج المؤدي إلى الحقيقة اليقينية، ذلك أن تعدد موضوعات المعرفة البشرية سايره تغيير وتعدد على صعيد المناهج. فقد طالب بيير بايل بالحق في الحديث عن اليقين التاريخي وفرض نيوتن على العقول عبارة اليقين التجريبي. وبالاعتماد على أدوات جديدة للاستدلال في مجال العلوم الطبيعية، أُبعدت الرياضيات ونموذجها العقلي شيئا فشيئا.

5. النافع والعملي. دعا فكر الأنوار إلى تكسير حواجز الفضول المعرفي بعدما كانت الكنيسة قد رسمت حدودا للمعرفة البشرية لا يجب تجاوزها، لكن تحرير الفضول المعرفي ما كان ليصير مثمرا لولا ربط المعرفة بالمنفعة العملية، وهذا هو روح دعوة ديكارت وبيكون إلى "سيطرة الإنسان على الطبيعة". ما عاد الكون في زمن الأنوار موضوعا للتأمل الجمالي واستخلاص النتائج الميتافيزيقية، بل تحول إلى "معمل" للتجريب والاختبار لاستخلاص قوانين الطبيعة بهدف استثمار هذه المعرفة استثمارا عمليا ونفعيا. وإذا كان هذا شأن العلوم الطبيعية، فإن العلوم الإنسانية سارت على منوالها فأصبحت المعارف الفلسفية حول المجتمع والأخلاق والسياسة وسائل لتنظيم حياة الإنسان في كل أبعادها.

قراءة تحليلية في نص إيمانويل كانط: ماهي الأنوار؟[3]

ننطلق في قراءتنا لنص ما الأنوار؟ من وجود أربع لحظات أساسية في مقال كانط، سنحددها أولا، ثم ننطلق في تحليلها.

المقطع الأول: "ما هي الأنوار؟ إنها خروج الإنسان من قصوره الذي هو نفسه مسؤول عنه. قصور يعني عجزه عن استعمال عقله دون إشراف الغير، قصور هو نفسه مسؤول عنه لأن سببه يكمن ليس في العقل، بل في الافتقار إلى القرار والشجاعة في استعماله دون إشراف الغير. تجرأ على استعمال عقلك أنت: ذلك هو شعار الأنوار".

المقطع الثاني: " وبعدما دفعوا بقطيعهم إلى هذا المبلغ من الحمق، واحتاطوا بعناية كي لا تجرؤ هذه المخلوقات الوديعة على أن تخطو خطوة واحدة للخروج إلى الحضيرة التي حبسوها فيها، فإنهم يطلعونها على الخطر التذي يتهددها فيما لو غامرت بالخروج وحيدة. والحال إن هذا الخطر ليس بالحقيقة كبيرا إلى هذا الحد،

---

[3] - أعتمد على ترجمة سعاد حرب المنشورة في موقع الكلية. كما يمكن الاعتماد على ترجمة أخرى هذا رابطها:
https://hekmah.org/%D9%85%D8%A7-%D9%87%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%86%D9%88%D8%A7%D8%B1%D8%9F-%D8%A5%D9%8A%D9%85%D8%A7%D9%86%D9%88%D9%8A%D9%84-%D9%83%D8%A7%D9%86%D8%B7-%D8%AA%D8%B1%D8%AC%D9%85%D8%A9-%D8%AD%D9%85/

لأنها ستتعلم في النهاية المشي بعد بضع عثرات، غير أن حادثا من هذا النوع يجعل المرء جبانا، والهلع الذي ينجم عنه يثني عادة عن تكرار المحاولة"

المقطع الثالث: " الكسل والجبن(...) يفسران كم من السهل على البعض أن ينصبوا أنفسهم أوصياء على هؤلاء [الذين ارتاحوا إلى قصورهم العقلي](...) من الصعب إذن على الفرد أن يخرج بمفرده من القصور الذي كاد أن يصبح له طبعا"

المقطع الرابع: "فإذا سؤلنا الآن إذن: "هل نعيش حاليا في عصر مستنير؟"، فإليكم الجواب: "كلا، بل في عصر يسير نحو الأنوار". وما يزال يلزمنا الكثير، بالنظر إلى ما هي عليه الأمور، حتى يمكن للبشر، في مجموعهم، أن يكونوا في حالة، أو يمكن وضعهم في حالة، يستعملون عقلهم الخاص، ودون مساعدة الآخرين، بجدارة وفائدة في أمور الدين"".

– في الاستخدام الطبيعي للعقل

يطرح كانط في مقاله سؤال الحاضر والمستقبل أو سؤال الحاضر الأبدي الذي ستدخله الإنسانية بوعي وإرادة. وللدخول في هذا الحاضر يدعو كانط إلى تحرير العقل من السلطة، وإخراجه من هيمنة الوصاية، ذاك التحرير هو عبارة عن

سيرورة تاريخية وواجب أخلاقي... فالدخول إلى عصر الأنوار لا يتحقق إلا بالخروج الفعلي من الوصاية. فهل يحتاج الإنسان إلى الاستنجاد بقوى أخرى غير قوته الذاتية لإنجاز هذا المشروع؟ في هذه النقطة تكمن قوة جواب كانط، إن القوة التي سيعتمد الإنسان عليها هي قوة داخلية، يحملها في ذاته منذ بدايات التاريخ الإنساني، لكنه سها عن وجودها وذلك بتواطؤ ظروف وشروط آن الأوان لتغييرها. إن الأداة المساعدة لخروج الإنسان من وضعية الوصاية يمتلكها في طبيعته. لذا فالخروج أمر طبيعي وتلقائي(سهل المنال) إذا امتلك الإنسان الشجاعة لاتخاذ القرار. لهذا لا يعتبر كانط عصره عصرا جديدا. ربما كانت المرحلة التاريخية التي ينتمي إليها بمثابة إعلان النهاية لعصور الوصاية والتبعية والعبودية والخضوع والسلطة، دَعْنا نقول إن كانط يشير إلى باب الخروج من عصر نحو عصر جديد.

لا ينبغي أن يفوتنا، ونحن نقرأ مقال كانط، ملاحظة أمر غاية في الأهمية وهو أن هذا الفيلسوف يتوجه بخطابه إلى الإنسانية جمعاء، فالتحرر مسؤولية جماعية، ليس محصورا في طرف دون أطراف أو في قوم دون أقوام... ذلك أن دخول الإنسانية طَوْر الرشد رهين باستخدام كل أفراد النوع البشري العقلَ.

لكن، ألم تكن الإنساني تستخدم العقل فيما مضى؟ إن الخطر المحدق بالعقل لا يكمن في عدم استعمال العقل، ولكن في سوء استعماله. فالإنسانية لم تتوقف يوما عن استخدام العقل، لذلك فسبب التخلف والاستبداد الذي راكمته البشرية وصولا إلى القرن الثامن عشر لا يرجع إلى عدم استخدام العقل، بل يرجع إلى أنها(الإنسانية) ظلت لعصور طويلة ضحية سوء استخدام قدراتها العقلية. يُلمح كانط إلى وجود قوى داخل المجتمع ساهمت لمدة طويلة في إفساد استخدام العقل دفاعا عن مصالحها المادية. ومن طول سوء استخدام العقل، ألف الناس هذه العادة فأصبحت الاستنتاجات المتولدة عن سوء استخدام العقل حقائق. لهذا نسي الناس بأنهم يعيشون في أوهام. ونظرا لطول سيرهم في الطريق الخاطئ فإنهم لا ينتبهون إلى وجود طريق آخر، وبذلك غدا فساد عقولهم وضعا طبيعيا. ومع طول الزمن اختلط الأمر على الناس، فباتوا يعتقدون أن سوء استخدام العقل هو الاستخدام السليم.

– التقدم في المعرفة طبيعة بشرية

في نظر كانط يجب أن تتحول فكرة "التقدم في التاريخ" إلى عقيدة في أذهان الناس. فإذا لم ننطلق من الاعتقاد بوجود تقدم إنساني شامل ومضطرد فلا

جدوى من ترسيخ قيم التسامح والسلم، ولا أمل من تطوير معرفتنا بالطبيعة وبقوانينها، ولا معنى للرغبة في كسر كل الحدود التي تمنع تقدم المعرفة الإنسانية.

بعدما أثبت كانط أن الإيمان بالتقدم هو ما يبرر أمل الإنسان في غدٍ أحسن، استنتج من المفهوم نفسه(التقدم) أساس الحرية. فتماشيا مع عقيدة التقدم، يجب أن تعترف الإنسانية بحق كل جَيْل في رفض المؤسسات الموروثة والأفكار القديمة، وليس لأحد سلطة منع التقدم بدعوى تقديس المؤسسات والمعتقدات القائمة. يعلمنا التاريخ أن كل شيء في التاريخ خاضع لصيرورة التقدم، لهذا كانت فكرة التقدم لدى كانط سَندا لدعم فكرتين أساسيتين في نسقه الفلسفي: الحرية الفكرية والنقد.

لكن بغية حفظ الأنظمة الاجتماعية والثقافية والأخلاقية والسياسية التي يعيش الأفراد في كنفها، بالنظر إلى ما تحققه لهم من إمكانية لتجسيد إرادتهم وحماية حياتهم، كان لزاما تنظيم الحرية. فالمجتمع عبارة عن إرادات متباينة ومختلفة، وإذا لم يضع الأفراد قانونا لتنظيم الإرادة لانتهى بهم الأمر إلى الفوضى وتهديد الحرية الفردية. لهذا ميز كانط بين الاستخدام الخاص للعقل والاستخدام العام للعقل. فحينما يكون الفرد بصدد تأدية مهمة محددة في إطار وظيفة ما عليه الخضوع للقوانين والضوابط والقواعد، لكن بإمكانه استخدام عقله في الفضاء العام ليعبر

عن رفضه لتلك القوانين والضوابط. هكذا يكون الفرد ملزما باحترام القانون عند أدائه واجباته وإلزاماته، وله بعد ذلك أن ينتقد تلك القوانين بكل حرية، ويسعى في تغييرها إن بدت له ظالمة وغير عادلة. فالكاهن مثلا عليه أن يقدم للمؤمنين أصول العقيدة أثناء دروس الوعظ بما يتماشى وسُنَّة الجماعة الدينية التي ينتمي إليها، وبعد ذلك يحق له أن يعبر عن نقده لتلك العقائد حينما يفكر كإنسان في الفضاء العام(كتب، مقالات، ندوات...)، آنذاك يصبح للعقل الصوت الأعلى.

– الاستخدام المفيد للأنوار والاستخدام المضاد للأنوار

الإشكالية الكامنة في الفقرة السابقة يمكن صياغتها كالتالي: كيف السبيل إلى تحرير العقل مع وجود سلطة سياسية مستبدة تحرّم استخدام العقل؟ بصيغة أخرى: هل يمكن تحرير العقل في إطار الاستبداد؟

لا يخلو نص المقال من نبرة تفاؤلية. والتفاؤل شعور حاضرٌ في نصوص الأنواريين عموما، لكن كانط يثير السؤال حول الطريق الذي يجب اتخاذه. ويمكن أن نقول إن نص كانط يحركه هاجس هذا السؤال. إننا في نظر كانط لا نعيش في عصر الأنوار، بل نعيش مرحلة انتقالية، لذا وجب التفكير في الأدوات اللازمة لمواجهة

مشاكل هذه المرحلة المحفوفة بالمخاطر كما تستوجب هذه المرحلة وعيا تاما بالقدرات الذاتية وبحجم التحديات المطروحة.

في الختام أورد قولا لكوندورسي Condorcet يلخص في العمق أسئلة كانط وتفاؤله: "تدل إشارات عديدة أن النوع البشري على مشارف عصر ثورات عظيمة. والسؤال المطروح الآن: من ينير طريقنا لنسير بثبات نحو ما ينتظرنا؟ من يكون لنا دليل ثقة وسط هذه التقلبات؟ تَعِدنا الوضعية الحالية للأنوار بأن العصر المقبل سيكون عصر سعادة عارمة، لكن تحقيق هذه السعادة رهين بالتحكم في كل قوانا. لهذا لابد من دراسة تاريخ الوعي البشري لنضع في الحسبان عوائق الطريق، ونحدد وسائل مواجهتها، حتى تكون لنا السعادة الموعودة كاملة غير منقوصة، وبأقل التكاليف، لينعم بها عدد كثير من البشر في وقت وجيز"[4].

[4] - Condorcet, **Esquisse d'un tableau historique des progrès de l'esprit humain**, GF, Paris, 1988, p. 89.